كأس

بقلم : أمين يوسف غراب

في اضطراب شديد دلفت الى المبنى في الظلام ، وفي خوف متزايد التفتت الى الوراء ، ولما لم تجد أحدا يراهـا استردت أنفاسهـا ، ولما اصلحت من هندامهـا راحت تخترق الممر وتتخطى بعض أبواب الشقق ، وهي تبحث عن باب معين بالذات وصف لها وصـفا دقيقا ، وكأنها كانت لا تريد أن تتعرف عليه لأنها عندما وقفت أمامه عاودهـا نفس الاضـطراب ونفس الخوف · وهمت أن ترجع فعلا ، ولكنها تذكرت شيئا هاما هي في حاجة اليه ، ولهـذا لم تشأ أن تفكر ومدت يدها المرتعشة وضغطت على زر كهربائي صغير ، وترامى صوت الجرس الى أذنيهـا من الداخل أشبه بعواء ذئب جائع ، فارتعش جسمها كله بعد أن كانت ترتعش يدها فقط ، وراحت تنتظر وتترقب ، انهـا تريد لهذا الباب أن يفتح سريعا وسريعا جدا وهي تريد له ألا يفتح أبدا ·· انهـا كانت لا تعرف ماذا تريد ·· وسـمعت صوت المزلاج يتحرك من الداخل فأغمضت عينيها سريعا حتى لا ترى خوفا أبشع من هذا الخوف الذي هي فيه ·· وانفتح الباب عن فرجه صغيرة ومع ذلك دلفت منها سريعا دون أن ترى أحدا ووقفت في الداخل فقد كانت الردهة شـبه مظلمة وكانت لا تزال أيضا مغمضـة العينين · كان ظهرها له وهي واقفة ، وكان ظهره لها وهو يغلق الباب ويحكم اغلاقه جيدا · ولما فعل اسـتدار وقال ولكن قبل أن يرى وجهها :

ـ أهلا وسهلا ·

وتمتمت في صوت خافت بعيد وهي تفتح عينيها ·

ـ أهلا بك ·

وأشار الى غرفة مضيئة وقال وكأنه لم ير وجهها أيضا :

ـ تفضلي ·

وسار أمامهـا وسارت هي خلفه · ولما اقتربت من شـعاع النور الباهت المنبعث من فرجة الباب تبينته ، ولما رأته شعرت على الفور باشـمئزاز لا حد له نحو هـذا الرجل العجوز الذي وخط الشيب شعره وتقوس ظهره واعوج حتى ساعده وراح يسير أمامها كما تسـير الدببة تماما ·· ما أقذر أمثال هـؤلاء الرجال ··· حتى هذا الرجل أيضا ·· حتى وهو في هذه السن · وزمت على

شفتيها سريعا فى اضطراب اذ ظنت ·· ولا ندرى لماذا ظنت هذا الظن ·· ظنت أن الهواجس والأحاسيس والمشـــاعر قد تسمع لغتهـــا الاذن · وهى لا تريد أن تسمعه الا كل ما يرضيه ·

وكانت قد بلغت الغرفة ورأت بعض المقـــاعد المتناثرة هنا وهناك فى فوضى عجيبة كانت المقاعد أشـــبه ما تكون معطلة ، تبدت لعينها أشـــبه ما تكون بتماثيل قديمة ملقاة فى العراء من آلاف السنين · وتاملتها ثانية ورأت فيمـــا رأت شـــيئا انزعجت له وزاد كثيرا من اشمئزازها · رأت مائدة كبيرة عليهـــا خمر ·· أجل خمر ·· زجاجة كبـــيرة ممتلئة ·· وأخرى بجوارها فارغة · ورأت أيضا كاسين ، كاسا فارغة لم تمتلىء بعد · لم تمتلىء أبدا فهى لذلك نظيفة لامعة · حلوة فى العين ، ورأت كاسا أخرى قذرة شاحبة ملوثة ، أشبه ما تكون بالشىء المتعب ·· المرهق ·· المنهوك القوى · وكان بهـــا خمر · وتبدت لها هذه الكاس وكانها تئن من كثرة ما تعبت · من كثرة ما امتـــلأت وما فرغت ··· لعل هذا الرجل شرب كثيرا · لعله أرهق هو أيضا ·· ونظرت اليه لاول مرة ، ورأت عينيه راعتهمـــا بلون الدم المسفوك لساعته ، أم همـــا تماما بلون البقايا التى فى قلب هذه الكاسه المتعبة ··· ترى من الذى أتعب الآخر وأرهقه كل هذا الارهاق ؟؟ ··· ونظرت اليه ثانية وأحست باشفاق زائد عليه · ولكنها عندما نظرت الى عينـــه مرة أخرى استبدل الاشفاق عليـــه بخوف كبير منه ، ولهذا دق قلبهـــا دقات سريعة ، سريعة جدا ·· كل ذلك وكانت لا تزال واقفه · وكان هو قد أعد لها مقعدا بجوار مقعده · ولما فعل قال وهو ينظر اليها لأول مرة ·

ـ تفضلى ·

فجلست ·

ـ أهلا وسهلا ·

نطقها وهو يجلس بجوارها ويتفحصها جيدا ، فتمتمت ولكن دون أن تنظر اليه ·

ـ أهلا بك ·

ومد يده وناولها سيجارة وكان قد نسى انه حياها فقال :

ـ أهلا وسهلا ·

ونظرت اليه هذه المره وهى تتمتم ·

ـ أهلا بك ·

ولما أشعل لها السيجارة قال :

ـ حدثتنى عنك كثيرا الست شفيقه

فلم تجب لأنها استشعرت على الفور سخطا هائلا على شفيقة هذه أطبق على أنفاسها ··· كان دائما سخطهـــا على شفيقة هكذا يطبق على الأنفاس ·· كان تماما أشبه ما يكون بالســـخط المغيظ الذى يستشعره انســـان نحو انسان آخر ورطه فى شر كبير ·· فى حياته مثلا ···

وكان قد نسى أنه قال لها شيئا ·· ونسى أيضا أنه حياها لانه قال لهـــا سريعا وهو يتعمقها بعينيه هذه المره ·

ـ أهلا وسهلا ·

ونظرت الى الكاس التى أمـــامه · والسيجارة التى تضطرب بين شفتيه المرتعشتين واشفقت لأول مرة فى حياتها

على رجل مخمور ، ولذلك قالت وهى أيضا تتعمقه بعينيها ·

ـ أهلا بك ·

وأراد أن يقول لها شيئا آخر ، ولكن السيجارة سقطت من بين أصابعه فتناولتها هى من على الارض وأطفأتها · وكأنه قدر لها هذا الجميل، لانه قال وهو ينظر هذه المرة الى الزجاجة التى أمامه ويمد يده اليها ·

ـ أهلا وسهلا ·

وأرادت أن تضحك هذه ولكنها زمت على شفتيها سريعا لأنها رأته يملأ لها كأسا وهو يقول :

ـ ماء ·· ثلج ·· صورة ·

وكانت لا تعرف شيئا من ذلك كله انها تعرف أنها تكره الخمر ولا تطيقها وأرادت أن تقول له ذلك ولكنها تذكرت انها قالت هذا لرجل غيره ذات مرة فغضب وطردها شر طرده ·· ترى هل سيطردها هو أيضا ان قالت له ـ لا ـ ؟! وصمتت لحظات · وقال هو ثانية ·

ـ ماء ·· ثلج ·· صوره ·

ـ ماء ·

وانفرجت أساريره عن ابتسامة حلوة وهو يناولها الكأس · وتألقت هذه الابتسامة أكثر وهو يراها تشرب ·· وأدهشها أن انسانا يسره عذاب الآخرين · ولذلك قالت :

الى هذا الحد أنت تحب الخمر ·

فقال وهو يضحك هذه المرة ·

ـ أحب الخمر وأحب شفيقة لأنها عرفتنى عليك ·

وتحرك السخط فى قلبها على شفيقه عنيفا حتى أحسست به يكاد يمزق أحشاءها ولذلك قالت له فى عنف ·

ـ منذ متى أنت تعرفت على شفيقه

فقال وهو ينظر اليها فى دهشة زائدة ·

ـ من شفيقة ·· أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم ·

وراحت تنظر الى عينيه وقد تبدت لها كذبالة تريد أن تنطفىء ·· وصمتت ·· وصمت هو أيضا لحظات مسح خلالها سائلا لزجا كان ينساب من بين شفتيه المرتعشتين ومد يده الى الزجاجة وأفرغ لها كأسا أخرى وقال وهو يقدمها اليها ·

ـ أهلا وسهلا ·

ولم تدر لماذا أحست باشفاقها عليه يتزايد ويتزايد · ولذلك تناولت من يده الكأس وراحت تشربها وكأنها تشربها راضية عنها سعيدة بها ·

وحانت منه التفاتة الى يدها المطبقة بها على الكأس وهى تشرب · ورأى شيئا فى أحد أصابعها يلتمع فى عينيه ولما تأمله جيدا وعرف أنه دبلة من الذهب قال وهو يريد أن يضحك ·

ـ أنت متزوجة ·

فقالت وهى تعيد الكأس الفارغة الى مكانها وتتذكر شيئا ·

ـ كنت ·

فقال وهو يضحك هذه المره ·

ـ وأنا أيضا كنت ·

ثم قال وهو يضحك طويلا ·

ـ أهلا وسهلا ·

ولما أفرغ لهـا الكأس الثانية قال وهو ما زال يضحك ·

ـ اذن نحن متســـــاويان ·· اذن اشربى ·· أجل أجل ·· نحن متساويان

وتناول كأسه هو وشربها مرة واحدة ثم قال وهو يناولها كأسها ·

ـ وأين ذهب زوجك ·

ـ مات ·

ـ أهلا وسهلا ·

قالها وكأنه يقولها لنفسه هـــذه المرة · ولذلك لم تجب هى بشىء ولهذا قال هو :

ـ ولماذا لم تتزوجى ·

ـعندى ولد ·

وكان موجة طاغية من الفرحة المباغتة غمرته وجرفته الى بعيد · لأنه راح يضحك ويقهقه ويهتز فوق المقعد حتى كاد المقعد يسقط به · ولذلك أمسك به أو أمسك هو بنفسه حتى لا يسقط من فوقه · وقال وهو يحاول أن يمسك عن الضحك ويتمسك بالمقعد الذى يجلس عليه ·

ـ حقيقة عندك ولد ·

وكانت الدهشة قد عقدت لسانهـا ورغم ذلك قالت :

ـ نعم · وما الغريب فى ذلك ؟

ـ لا لا لا ·· لا الغريب ألا يـكون ذلك ·

فنظرت اليه طويلا وتتمتت دون أن تدرى ·

ـ انك عجيب أيها الرجل ·

ـ ها ها ها ها ·· اشربى ·

وظنته قد سمعها فغضب فاضطربت ولكنها لما نظرت الى وجهه ورأته ما زال متهللا وما زال يضـــــحك · اطمأنت وتناولت منه الكأس وشربتها · فقـال وهو يملأ له كأسا أخرى ·

ـ وكم سنه ·

ـ أربع عشرة ·

فضحك وقال :

ـ اذن اشربى ·

ـ شربت كثيرا ·

ـ اذن أشرب أنا ··

وتناول الكأس وأفرغها فى جوفه مرة واحدة · ثم أمسك بالزجاجة وأفرغ منها كأسا أخرى وشربها · وكانت هى تنظر اليه ولكنها كانت تبكى دون أن تدرى لأنه نظر اليها وقال فى دهشه

ـ هل تبكين ·

ـ لا أبدا · أبدا ·

فقال وهو يضحك ·

ـ لا بد أنك تحبين ابنك كثيرا ·

ـ لماذا ؟ ·

ـ لأنك تبكين ·

ولما لم تجب قال هو ·

ـ أنا أيضا أحبه كثيرا ·

ففغرت فاها وهى تقول :

ـ هل انت تعرفه ؟

فمد يده سريعا هذه المرة الى الزجاجة وملأ لها كأسا وملأ له أخرى وقال وهو يناولها كأسها ·

ـ اشربى ·

فاضطربت يدها وهى تتناول منه الكاس واضطربت شفتاها وهى تسأله:

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ أعرف من ·

ـ تعرف ابنى ·

فقهقه عاليا وهى يقول دهشا لهذا السؤال ·

ـ طبعا أعرفه ·· أعرفه ·· أعرفه جيدا ···

ومد يده سريعا وهى ترتعش الى يده الأخرى التى كانت ترتعش أيضا ونزع منها ساعة ذهبية عالية وناولها اليها وهو يقول :

ـ خذى هذه الهدية اليه · خذيها اليه · الى ابنك · نعم الى ابنك ·

ـ أقول هل أنت تعرفه ؟

ـ قلت لك طبعا طبعا · وخذى أيضا ·

ومد يده الى جيبه سريعا أيضا وأخرج قلما ثمينا من الحبر وناولها اياه وهو يقول ويضحك ··

ـ وخذى أيضا هذا هدية اليه ·

وأدارت الدهشة رأسها فدارت بها الأرض ولكنها تماسكت وأرادت أن تنطق ولكنه لم يمهلها لأنه راح يتلفت حواليه وكأنه يبحث عن شىء وهو يتمتم ·

ـ انتظرى ·· انتظرى ·· وماذا أيضا ··

ومرة أخرى راح يتلفت حواليه وفجأة كأنه تذكر شيئا فرح له كثيرا وهو يخرجه من جيبه ويعطيه اليها وهو يقول وما زال يضحك ·

ـ خذى أيضا هذه السلسلة من الذهب انها اليه ·· الى ابنك ·· أجل الى ابنك ·

وأراد أن يقول لها شيئا آخر ولكنه قد بذل مجهودا كبيرا فى الضحك أتعبه الى حد فاستراح على المقعد وأسند ظهره اليه وألقى برأسه فوقه وأغمض عينيه حينا ليستريح قليلا ·

وراحت هى تنظر اليه والدهشة تكاد تمسك بحواسها جميعا ـ من أين يعرف ابنها ـ وفتحت عينيها ونظرت اليه فازدادت دهشتها · وفتحت عينها ونظرت الى كل هذه الهدايا التى مازالت تمسك بها وازدادت دهشتها · ورنت فى أذنيها بعض الكلمات فاندهشت أكثر وأكثر ··· طبعا طبعا أعرفه ··· اعرفه ··· ولكن من أين يعرفه ؟؟ وأحست بقوة تدفعها الى شىء ولذلك قالت له وكأنها تريد أن تنهره ·

ـ اننى أسالك هل أنت تعرفه ؟ ·· ومن أين تعرفه ؟ ·

وفتح عينه وكان بفضل هذه الاغفاءة القليلة قد استعاد قواه ولذلك نظر اليها ولما أعادت عليه السؤال اندهش دهشة غريبة لأنه انفجر ضاحكا هذه المرة وراح يضحك ·· ويضحك ·· ثم مديده وهو يضحك الى الزجاجة التى كانت قد أوشكت على أن تفرغ ، وأفرغ منها كأسا وشربها · ولما مسح ذلك الشىء اللزج الذى كان على شفتيه قال وكأنه يقول شيئا مفرحا ·

ـ أنا أيضا عندى ولد ٠

ففغرت فاها وأغمضت عينيهـا فيما يشـبه الذهول فقـد كانت تتوقع أنه سيقول لها أىشىء غير هذا ٠ ولما فتحت عينيها ونظرت حينا اليه وحينا الى الهدايا التى أعطاها اليها وكانت ما تزال فى يدها قالت :

ـ يبدو أنك تحب ابنك كثيرا ٠

فأراد أن يضحك ولكنه لم يقدر هذه المره وقال :

ـ كما تحبين انت ابنك تماما ٠

فاقتربت منه ووضعت يدهـا على كتفه وقالت وهى تضحك هذه المرة ٠

ـ هل عندك غيره ؟

ـ لا هو فقط ٠

فأراحت ذراعها فوق كتفه وهى تقول مداعبة ٠

ـ لابد أنه جميل جدا ٠

فتألق وجهه وزادت فرحته وهـو يقول لها فى طفوله ٠

ـ مثل القمر تماما ٠٠ انظرى ٠٠

ودس يده سريعا فى جيبه وأخرج صورة لفتى فى العشرين من عمره جميلا جمالا رائعا وقال وهو يمسك بالصورة فى يده وينظر اليها معها ٠

ـ انظرى هذه هى صورته ٠٠ انظرى الى عينيه أليست جميلة ؟ ٠ ٠

ـ جدا ٠

فازدادت فرحته وازدادت طفـولته وهو يقول :

ـ انظرى ٠٠ انظرى الى جبهته ٠٠ الى حاجبيه ٠ ٠ الى وجهـه ٠ ٠ أليس جميلا ٠

ـ جدا ٠ جدا ٠

ـ انظرى ٠٠ انظرى الى قوامه ٠ انظرى الى كل شىء فيه ٠٠ انظرى حتى الى الحذاء الذى فى قدمه أليس جميلا ؟

فقالت وهى تمسك بالصورة وتريد أن تأخذها منه ٠

ـ انه أجمل فتى رأته عينى ٠

ولما أطبق بأصابعه على الصورة ولم يعطها اليها قالت :

ـ حفظه الله لك ٠

فوضع الصورة فى جيبه وهو يهز لها رأسه شاكرا ويمسك بكأسه ويقول

ـ اشربى ٠

فقالت وهى تمسك بكأسها أيضا ٠

ـ هل هو يقيم معك هنا ؟ ٠

فضحك ضحكة عالية وقال وهـو يخلص الكأس من بين شفتيه ٠

ـ انه سافر ٠

ـ سافر الى أين ٠

ـ سافر الى بلد بعيدة ٠ بعيـدة جدا ٠

ـ وكيف أخباره ؟ ٠

ـ يعملها الله ٠

ولما أغمض عينيه قالت :

ـ ألا يكتب اليك ؟ ٠

ـ بكل أسف ليس فى تلك البلدة مكتب بريد ٠

فأدهشها هذا وقالت :

ـ ليس من بلد فى الدنيا لا يوجد فيها مكتب بريد ٠

فقال وهو يضحك ٠

ـ بلد واحد فقط ٠ هو الذى سافر اليه أحمد منذ عامين ٠

فاشفقت عليه وقالت :

ـ ومتى سيعود ؟

ـ اشربى ٠

قالها وهو يبتسم ومد يده التى كانت قد تخاذلت جدا الى الكاس التى أمامه ورفعها الى ثغره ولكنها فجأة سقطت من بين أصابعه · فاندعرت ·

ومدت يدها لتناول الكاس من على الارض ولكنه قال لها :

ـ اتركيها ·

ثم جاهد عينيه جهادا طويلا حتى فتحهما ونظر اليها وقال ·

ـ هيا بنا · اننى أريد أن أنام ·· أنا متعب أليس كذلك ؟ ·

ـ لا أبدا ·

فرفع ذراعه ولكنه لم يمدها طويلا وأشار الى خارج الغرفة على شمال الردهة التى أمامها وقال :

ـ من هذه الناحية تجدين الغرفة الثانية ·· اننى وحدى فى هذا البيت · أجل اننى وحدى منذ أن سافر أحمد

وكانت قد نهضت فعاود النظر اليها وهو يقول :

ـ سأنتظر قليلا ·· فقط أشرب هذه الكاس ·

فنهضت دون أن تنبس وغادرت الغرفة ، وسارت شمالا مخترقة الردهة كما أشار اليها بالضبط ورأت بابا فتحته كان هو الباب الوحيد الذى رأته ولما دخلت منه ردته خلفها وتمددت فوق الفراش بملابسها حتى الحذاء ظل فى قدمها أغمضت عينها وراحت تنتظر ·

ومرت لحظات ولحظات · ومع ذلك راحت تنتظر ·· ومرت لحظات أخرى ·· وأخرى بعدها · ودقت ساعة كانت فى الردهة ثلاثا فذعرت ·· ان الساعة تشير الى الثالثة صباحا ، وهى تريد أن تنصرف ، انها لا تستطيع أن تمكث أكثر

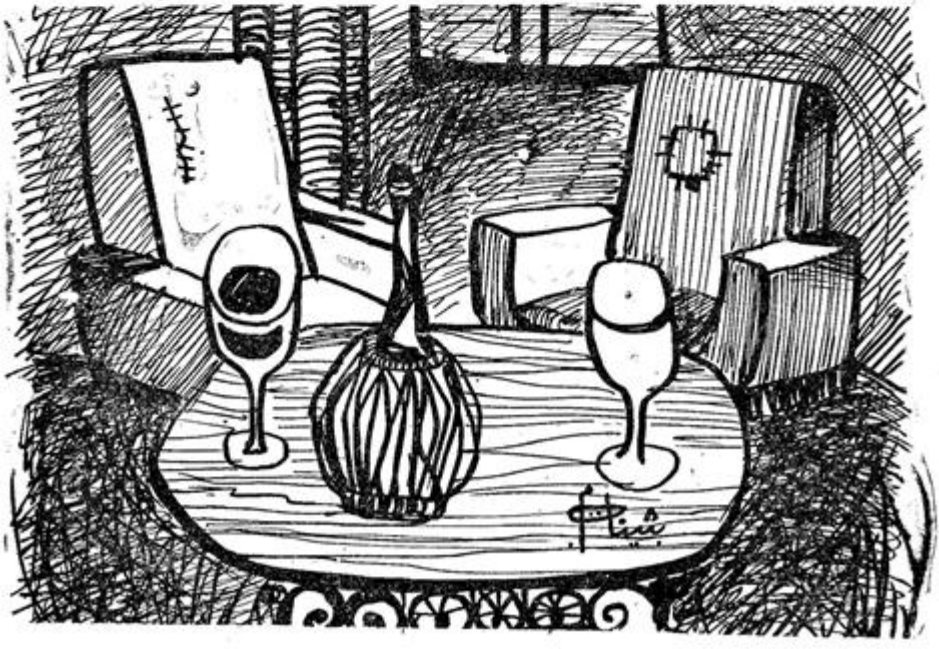

من ذلك ... ترى هل سيظل هـذا الرجل يشرب حتى الصباح ؟؟؟

ونهضت في تخاذل لا حد له وراحت تجر ساقيهـا جرا حتى فتحت الباب واخترقت الردهة وأيضا الممر الصغير الذى بين الغرفتين وهى تكاد تكون مغمضة العينين . انها لا تريد أن ترى أحدا . ولا تريد أن ترى شيئا . ان كل أملها أن يأذن لها بالانصراف فقد بلغت الساعة الثالثة صباحا . ولا تستطيع أن تمكث أكثر من هذا الوقت .. وفجأة تعثرت قدمها فى شيء ففتحت عينها فيما يشبه الخوف . وما أن نظرت حتى وقفت ذاهلة يكتنفها ذعر شديد . فقد رأته ملقى فى الظلام فوق الارض فاقـد الوعى .. انها أبدا لم تصدق عينيها . ولذلك نظرت ثانية فاسقط فى يدها وهى تقترب منه واسقط فى يدها أيضا وهى تتبينه على بصيص الضوء الخافت المنبعث من فرجة الباب وتتبين رأسـه الغارق فى شيء غريب . كانت الرأس ملقاة فوق رقعة لايعرف لها لون . هل هى سائل لزج مخاطى ينساب من الفم ، أم هى دم قانى ينساب من منخاريه ؟ . وأغمضت عينها فى شيء لم تعرف له شبيها من قبل . هل هو الخوف ؟ هل هوالفزع ؟ هل هو الوهم ؟ . هل هو الحزن ؟ هل هو الاشفاق . ؟ وفتحت عينيها ونظرت ثانية ولكن ما هذا الشيء الغريب الذى يلتمع تحت خده تماما وكأنه يضـع رأسه عليه . وكأنه يخفيه فى هـذا المكان من وجهه حتى لا يتلوث بالدماء كما تلوث أغلب الوجه .. ونظرت ثانية وتعمقت هذا الشيء وبعد جهد استطاعت أن تعرف أنه صورة صغيرة لفتى جميل فى العشرين من عمـره .. وجحظت عيناها وهى تناديه ولكنه لم يجب . وهزته ولكنه لم يتحرك . وظنته ميتـا فأمسكت أنفاسها . ومدت يدها وهى فى هذا الرعب الشديد نحو صـدره لترى هل مات حقا فتهرب ، أم هـو ما زال حيا فتقدم له صنيعا حتى ولو كان حياتها ...

وأحس هو بيدها تقترب من صدره .. وظنهـا ستسرقه فحاول أن يحرك يده ولكنه لم يقدر . وحاول أن ينطق ولكنه لم يقدر أيضا ، ولما لم تستطع يدها أن تتعرف الحقيقة من فوق الثياب مدت أصابعهـا وفكت بعض أزرار القميص لتضع أناملها أو أذنها فـوق القلب ولما أحس بيدها تقترب من صدره فعلا وتأكد من ظنه جاهد نفسـه حتى تحركت شفتاه وتمتم فى توسل دون أن يفتح عينيه .

– اسرقى كل شيء .. فقط أرجوك ابقى لى الصورة ... ابقى لى أحمد

واغرورقت عيناها وغمرتهما الدموع حتى انها لم تر الطريق الذى تسير فيه بعد أن غادرت المبنى .. ولما تعذرت الرؤية عليها وهى تتعثر فى الطريق فتحت حقيبتها وأخرجت منديلا لتجفف به هذه الدموع التى تحجب عنها الرؤية ، ولما فعلت أحست بالمنديل وهى تمسح به عينيها جافا خشنا على غير العادة يكاد يجرح جفونها أو هـو يكاد يفقأ عينيها . فنظرت اليه ، ولما تبينته من خـلال شبكة الدموع التى تملأ العيون ، وجدته ورقة من فئة الخمسة الجنيهات كان قد وضعها لها فى الحقيبة دون أن تعرف .

أمين يوسف غراب